تجليات الحزن والتفاؤل في بنية ديوان سبأ أخرى الشعرية (دراسة تحليلية)

م.م دعاء موسى كاظم
جامعة بابل/ كلية التربية الأساسية/ قسم اللغة العربية
doaamosa505@gmail.com

الملخص:
يحظى الشعر بقدرته الفائقة على التقاط المشاعر الإنسانية العميقة وتحويلها إلى نصوص نابضة بالمعنى. ويتجسد في ذلك ديوان «سبأ أخرى» للدكتور أحمد جاسم الخيال الذي يثري التجربة الوجدانية العربية المعاصرة من خلال مزاوجة دقيقة بين الحزن والتفاؤل. تأتي هذه الدراسة لتكشف عن كيفية تشكّل هذين الشعورين في البنية النصية للديوان، وأثرهما في بلورة رؤيته الشعرية والوجودية، واتبعت في ذلك منهج تحليل نصي جمالي قائم على المقاربة الأسلوبية والرمزية، ضمن منظور النقد التأويلي والوجودي، وأدوات التحليل: قراءة مجازية، دراسة حقل الدلالة الرمزية والصور الشعرية، واستجلاء الأبعاد النفسية للنصوص، وان من اهم الدراسات التي تناولت الموضوع والشاعر هي: حنا بواردي، باسيليوس، مفهوم الأمل واللاأمل في الشعر الفلسطيني: ريم غنايم ووسام جبران نموذجين نصيين، مجلة الدراسات العربية:2023م، مجلد 2، العدد 224م، العتابي، م.د أحمد

كاظم سلمان، مظاهر الحزن في شعر فليحة حسن، جامعة واسط، مجلة كلية التربية، العدد الرابع والأربعون، ج1 / آب / 2021، العرداوي، زمان شناوة فاهم، شعر احمد الخيال دراسة أسلوبية، جامعة كربلاء /كلية التربية للعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، 2022م.
الكلمات المفتاحية: الحزن، التفاؤل، أحمد جاسم الخيال، سبأ أخرى.

Manifestations of sadness and optimism in the structure of the poetry collection “Saba ukhraa’” (an analytical study)

Assistant Lecturer Duaa Mousa Kadhim
University of Babylon / College of Basic Education / Department of Arabic Language

Abstract:
Poetry has the extraordinary ability to capture deep human emotions and transform them into texts brimming with meaning. This is embodied in the collection "Another Sheba" by Dr. Ahmed Jassim Al-Khayal, which enriches the contemporary Arab emotional experience through a subtle blend of sadness and optimism. This study reveals how these two emotions are formed in the textual structure of the collection and their impact on shaping its poetic and existential vision. In doing so, it follows an aesthetic textual analysis approach based on stylistic and symbolic approaches, within the perspective of interpretive and existential criticism.Analytical tools: metaphorical reading, study of the field of symbolic meaning and poetic imagery, and elucidation of the psychological dimensions of the texts.

Keywords: sadness, optimism, Ahmed Jassim Al-Khayal, Another Sheba.

أهمية البحث:

تنبع أهمية هذا البحث من كونه يتناول ديوان سبأ أخرى بوصفه نصًا شعريًا يجمع بين ثنائية الحزن والتفاؤل، وهي ثنائية إنسانية عميقة الحضور في التجربة الشعرية المعاصرة، ويسعى البحث إلى الكشف عن كيفية تجلي هذين البعدين الشعوريين في البنية الشعرية للنص، من خلال تحليل الصور الفنية، والرموز، والإيقاع، والتشكيل اللغوي، بما يبرز التفاعل الجدلي بين الألم والأمل داخل النص، وتتجلى أهمية الدراسة في عدة جوانب: الأهمية الموضوعية، الأهمية النقدية، الأهمية الجمالية، الأهمية الثقافية والإنسانية.

التعريف بالمصطلحات:

تعريف الحزن والتفاؤل لغة:

جاء في لسان العرب تعريف الحزن لغة: الحُزن والحَزن هما نقيضا الفرح، وهو خلاف السرور، والجمع أَحْزَان، وقد حَزِنَ حَزَنًا وتَحَازَنَ وتَحَزَّنَ (ابن منظور، 1994م،ص111)، أما اصطلاحًا: فقد عرفهُ الجرجاني بانهُ: "عبارة عمّا يحصل لوقوع مكروه، أو فوات محبوب في الماضي " (الجرجاني،1983م، ص86)، فهو شعور نفسي ينتج عن فقدان أو خيبة أمل أو موقف أليم، يترك أثراً داخلياً يُثقل القلب ويضعف الروح. يُعد من الانفعالات الإنسانية الطبيعية، ويعبّر عن الألم الداخلي وعدم الرضا حيال موقف معين، وكان الرسول (ص) يرشدنا على الاستعاذة منه والتوجه إلى الله قائلا: "اللهم إنّي أعوذ بك من الهمّ والحزن"(البخاري، 194 - 256هـ،36/4)، وهذا الحديث هو تأكيد للآية الكريمة من قوله تعالى: "وَلَا

تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ "(آل عمران/ 139)، أي انه لا يجلب منفعة بل يكون مضرا بصاحبه ولا فائدة منه.

التفاؤل لغة: مَصدَرٌ للفِعلِ تفاءَلَ، يقالُ: تفاءَلتُ به، وتفأَّلتُ به. والتَّفاؤُلُ: ضِدُّ التَّشاؤُمِ، وقد يُستعمَلُ الفَألُ فيما يُكرَهُ، فيُقالُ: لا فألَ عليك، بمعنى: لا ضَيرَ عليك، ولا طَيرَ عليك، ولا شَرَّ عليك (ابن منظور، 1994 م:ج 11، ص 513)، اما اصطلاحا: هو انشراحُ قَلبِ الإنسان وإحسانُه الظَّنَّ، وتوقُّعُ الخيرِ بما يسمَعُه مِنَ الكَلِمِ الصَّالحِ أو الحَسَنِ أو الطَّيِّبِ وقيل: هو صِفةٌ تجعَلُ توقُّعاتِ الفَردِ وتوجُّهاتِه إيجابيَّةً نحوَ الحياةِ بصِفةٍ عامَّةٍ؛ يستبشِرُ الخيرَ فيها، ويستَمتِعُ بالحاضِرِ، ويَحدوه الأمَلُ في مُستقبَلٍ أكثَرَ إشراقًا وأحسَنَ حالًا (العكسر، 2018،ص12)، أي انه ميل نفسي يبعث على توقع الخير وتيسير الأمور في المستقبل، رغم التحديات والصعوبات. وهو نظرة إيجابية للحياة تعزز الأمل وتزيد من القدرة على مواجهة المحن بثقة.

إنَّ علاقة التفاؤل والحزن بالشعر وثيقة وعميقة، فالشعر كان وما زال وسيلة الإنسان للتعبير عن مشاعره المتقلبة بين الأمل واليأس. يُجسّد الحزن في الشعر لحظات الوجع والفقد، ويُضفي عليه بعداً وجدانيًا يمس القلوب، بينما يعكس التفاؤل في الشعر روح الأمل والإصرار، ويمنح القارئ طاقة إيجابية تجعله يرى النور في عتمة الحياة.

ترجمة لحياة أحمد جاسم مسلم الخيّال.

أحمد جاسم مسلم مطر عباس محمد الخيّال الجنابي، من مدينة القاسم، من مواليد 1968م (المرزوك، 2012م،ج1، ص28)، اكمل دراسته وتخرج من جامعة بغداد 1992م، وأكمل الماجستير في كلية الآداب/ جامعة القادسية 2008م، ثم اكمل الدكتوراه في كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة بابل

2013م (المرزوك، 2012م،ج1،ص28)، كتب الشعر في عمر الثلاثة عشر عاما، ونشرت أول قصيدة له في جريدة العراق 1986م وكانت بعنوان (ضوضاء داخل قصر الحب)(العرداوي، 2022م، رسالة ماجستير)، صدر له أربعة عشر كتابًا ومجموعة شعرية، ونشرت له أيضًا بحوث محكمة كثيرة في مختلف المجلات العراقية فضلًا عن مشاركات كثيرة في المهرجانات الشعرية والعلمية (حوار مع الشاعر)،حصل على العديد من الجوائز الادبية والشعرية منها: - حائز على المركز الثاني لمسابقة القصة القصيرة التي أقامتها كلية الآداب/ جامعة بغداد، عام 1993 عن قصة (الحلم)، ونُشرت القصة في مجلة الطليعة الأدبية عام 1999م، وعلى المركز الأول في مسابقة الجود العالمية الخامسة للشعر التي أقامتها العتبة العباسية المقدسة عن قصيدة (سجدةٌ...على أرض الجود). 2014 وجائزة سيد الأوصياء للشعر عن قصيدة (تأويل نبوءة العشب) التي أقامتها أمانة مسجد الكوفة المقدس، ومسابقة (بهم انتصرنا) الشعرية لنصرة الحشد الشعبي التي اقامتها العتبة الحسينية عن قصيدة (العاشق السماوي) 2016، وخلال مسيرته الشعرية أصبح: عضو اتحاد أدباء العراق، عضو جمعية الرواد الثقافية، رئيس الهيئة الاستشارية للبيت القافي في مدينة القاسم، رئيس مجلة المنهل من عام 2004 - 2005، رئيس تحرير مجلة المحقق العلمية2016 (العرداوي 2022م،ص 24)، وتزخر مسيرته الادبية بالعطاء، لكن لا يتسع المجال لسردها.

تجليات الحزن والتفاؤل في الديوان:

الحزن عند الشاعر ليس مجرد شعور عابر، بل هو حالة وجودية تتجسد في كلماته وصوره الشعرية، يتغلغل في أعماقه ويُلهب خياله. يُحوّل الشاعر حزنه إلى فن راقٍ، يصوغ منه أبياتًا تنبض بالألم والحنين، فتلامس القلوب

وتعبر عن أوجاع الإنسان في أرقى صورها، في علم النفس يمكن تعريف الحزن على أنّه: عاطفة سلبية مرتبطة بالشعور أو الخسارة أو الإحباط، وقد تتراوح شدته من حزن خفيف إلى حزن عميق، وفي الحالات الشديدة يمكن أن يتطور إلى اكتئاب(جولمان،1989م، ص88)، حيث يبتدأ الحزن في الديوان بوصفه حالة كونية لا مجرد انفعال شخصي؛ تتجلى في تيه، وحدة، واستدعاء أسطوري (هابيل، الغراب، الحوت)، فنجده يقول:

وحيدًا
تماهى في السُّرى
غيرَ خائفٍ
ومن خلفهِ
تَهذِي الصحارى العواقرُ (الخيال،2012م،ص7)

يتحدث الشاعر عن سيرهِ وحيداً في الليل، وقد اندمج في رحلته حتى أصبح جزءًا منها، دون أن يشعر بالخوف رغم الوحدة أو الظلام وفي الخلف، تمتد الصحارى العاقر (التي لا تُنبت شيئاً)، تهذي كأنها كائن حيّ يتألم أو يهمس بكلام لا يُفهم، في مشهد يوحي بالتيه والوحشة، فهو يشير إلى يأس أو حزن عميق جعله لا يهاب شيئًا، حتى الموت، والحزن هنا هادئ، داخلي، عميق، ليس صراخًا بل صمت يمضي بصاحبه بعيداً عن كل شيء، كمن ترك خلفه العالم بلا رجعة، وهي صورة سردية تفتح باب التأويل على حزن وجودي متجذر في الخطيئة والضياع.

إنه تصوير شعري للحزن كرحلة داخلية طويلة، يسير فيها الإنسان بلا وجهة، وبلا أمل، وهو "شعور سلبي نفسي ناتج عن خسارة مصحوبة بالم وانخفاض في المزاج"(ماكاي، 2002م، ص49)، ويستمر الشاعر برحلة الحزن بصورته الفلسفية الصامتة، فيقول:

وحيدًا
وما للكأسِ غيرُ سقاتها
يبيعونَ
للفجرِ العتيقِ شموسَهم (الخيال،2012م،ص 10-11)

يتحدّث الشاعر عن وحدتهِ، في قولهِ: «وما للكأسِ غيرُ سقاتها» صورة موحية؛ إذ جعل الكأس موضوعًا قائمًا بنفسه، لا يملكه إلا السقاة، وكأن الشاعر نفسه غريبٌ عن هذا المجلس رغم وجوده فيه، أما «يبيعونَ للفجرِ العتيقِ شموسَهم» ففيها استعارة جميلة: جعل الشمس ملكًا لهم يبيعونه، والفجر «عتيق» يوحي بالقدم أو بالتعب أو بفجرٍ خالٍ من التجدد، مما يزيد إحساس السأم.

رسم الشاعر صورة الحزن في حال تيه وحيرة وحزن وجودي عميق فيقول:

أنا
على ظهرِ هذا الحوتِ أنتقلُ
لا موجَ يدري
ولا بحرٌ متى أصلُ
محمَّلٌ بأسَى هابيلَ
يَشتمُني
سرُّ الغراب (الخيال،2012م،ص13).

استدعى الشاعر قصة هابيل والغراب، وهي من أقدم قصص المأساة والذنب في الذاكرة البشرية، وحزنٌ يحملك على ظهر حوت، أي في تيهٍ بحريّ عظيم لا قرار له، وكأنك نبي الله يونس لكن بلا نبوءة، بلا موعد نجاة، بلا موج يدلّك ولا بحر يبشّرك بالمرفأ، وهذا يجعل الحزن هنا ليس شعورًا ذاتيًا فقط، بل مأساة وجودية، معتمة، متصلة بخطيئة الإنسان الأولى، فهو

يصور الحزن وجودي، أسطوري، محمّل بالرموز الدينية والكونية وهذه درجة عالية جدًا من الحزن الشعري، تتجاوز الشكوى الذاتية إلى تصوير مأساة الوجود والذنب والخطيئة.

صور الشاعر الحزن بأسلوب ميثولوجي عميق (هابيل، الغراب، الحوت، البحر)، فيها تكثيف للمعنى وضغط للرمز، وهو من سمات الشعر الوجودي، بلغة غاية في الدقة لمن يقرأها لأول مرة يجدها معقدة وتحتاج تأملا يُكشف عمقها.

يتجلى الحزن في غياب المشاركة الوجدانية، فيقول:

كانُوا هنا... وأنا هُناك

والسرُّ أنّهمُ تناسُوا سرَّ أغنيةِ البقاءِ فصارُوا لَحْنَا

بين الحقيقةِ والمجازِ

أُرتّلُ المعنَى

وأكتبُ فوق خدِّ الريحِ بسملةِ الرحيلْ (الخيال،2012م،ص26)

كل الصور تقريبًا تحيل إلى فكرة أن:

• الآخرون تغيّروا أو غابوا حتى صار وجودهم موسيقى عابرة.

• وأنك وحدك تحمل ثقل هذا المعنى، ترتله وتكتبه على الرياح، في استسلام حزين لجبرية الفراق.

استعان الشاعر بالمجاز المركّب (مثل: بسملة الرحيل، لحن بين الحقيقة والمجاز) مما يرفع الحزن من مجرد عاطفة شخصية إلى تأمل وجودي في الفقد، ف صور الحزن عنده ناضجة، دقيقة، تخلو من المباشرة، وتعتمد على تحويل الفقد إلى ألحان وأغانٍ وأسرار وبسملات، إنها صور روحية وجودية للحزن، لا فقط عاطفية وهذا ما يعطي نصه قيمة أدبية عالية ويجعله ينتمي بصدق إلى شعر التأمل والفقد النبيل، "وهذا الحزن الناتج عن فقد عزيز من

أعظم الاحزان فهو مادة اساسية في قصائد الشعراء وكانت معبرة عن شجونهم ومشكلات حياتهم بما كان لديهم فهم اعمق للحياة، واحساس مفرط بجملة تناقضاتها"(الجبوري، 2004م، ص22).

يصور الشاعر الحزن بانه لا يثور ولايبكي، بل يقف في طابور الأفكار والكتب والأحلام المكررة فيقول:

نصطَّفُ
كالمعنَى المثقَّفِ
في كتابٍ أسمرِ الصَّفحاتِ
لا يُروي الظَّما
نبتلُّ بالأحلامِ والأوهامِ والمطرِ المكرَّر
ثمَّ نبتدعُ الكَرى (الخيال،2012م،ص39)

في هذا النص يقف الحزن وقفة الفيلسوف المتعب: لا يصرخ، لا يتذمر، بل يصف نفسه بهدوء مميت. إنه حزنٌ يشبه المعاني المحفوظة في كتب قديمة، أوراقها سمراء من كثرة ما مسّها الغبار والنسيان، فالثقافة هنا لا تبدّد الوحشة، بل تزيدها اتساعًا، حتى يصير الفكر نفسه طابورًا من المعاني المصطفّة — غريبة عن ماء الحياة، ثم يبلّ هذا القلب اليائس ذاته بالأحلام، بالأوهام، وحتى بالمطر، لكن المطر مكرّر، يجيء ويجيء بلا جديد، فلا يزهر في داخله إلا تعبٌ بارد، وهنا تتجلّى عبقرية الصورة: الحزن لم يعد ينتظر حتى يغلبه النوم، بل صار «يبتدع الكرى»، يصنعه بنفسه هروبًا من هذا الصحو الموحش، فلا يمنح النص الحزن ملامح درامية صاخبة، بل يقدّمه في ثياب وجودية ناعمة، شاحبة، كأنه لوحة زيتية باهتة الألوان — تهمس بأسرار قلب ضجر من المعنى والانتظار معًا.

يُمسك الشاعر بالحياة مثل سبورة مبللة بالطباشير: يخطُّ عليها فجرًا ثم يمحوه، يترك حربه خلفه ليهدي مراياه كتابًا ناقصًا، فيقول:

وعدْتُ
مِن حربِكَ الكُبرى إلى سِلمي
أَهدِي المرايا
كتاباً ناقصَ الحُلْمِ
فجرُ الطَّباشيرِ
في سبورَتِي قلقُ
يمحُو ويُثبتُ
أسراباً من الغيمِ (الخيال،2012م،ص42)

هذا النص يحتفي بالهشاشة الوجودية، يعود الشاعر من حربه لا بانتصار، بل بسلامٍ ناقصٍ يشبه المرايا التي لا تعكس حلمًا كاملًا، يرسم فجرًا بطباشير، هشًا، زائلًا، يعيد رسم الغيم ثم يمحوه، في دورة عبثية مليئة بالقلق، ويكشف أن الحقيقة في النهاية مجرّد صفحة مرقّمة في دفتر نسي نصفه المطر، فالحزن "هو الذي يسكن القلوب البريئة التي لا ذنب لها في ألغام الأرض ولا قذائف السماء " (العتابي، 2022م، ص70)، أي إنه نص يحفر في قلق المعنى، وفي هشاشة البدايات التي تمحى قبل أن تكتمل، وفي لعبة الكتابة التي تعرف جيدًا أنها ناقصة أبدًا.

ويقول:

أوجعْتَ صبرَكَ
كم جُرحٍ ستقطبُهُ
وكم نهارٍ فقيرِ الضوءِ
ترقبُهُ

مرُّوا على نخلِكَ الموَّالِ
ذاكرةٌ من الأراجيحِ
والأيَّامُ تحطبُهُ (الخيال،2012م،ص 55)

في هذا النص، الحزن ليس حدثًا عابرًا، بل منهج حياة: صبرك مثقل بالجروح التي لا تندمل، النهارات شحيحة الضوء، والنخل- رمز ذاكرتك- صار أراجيح فارغة تنهشها الأيام بفؤوسها. هكذا تُعيدك الحياة دائمًا إلى موالك الحزين على صفحة ضاعت منها البدايات، فالحزن هو مقاربة لحالة نفسية ترتبط بالعاطفة الإنسانية " حيث تحتضن البكائية النبض الإنساني في حالة اضطرابه أثر فاجعة تمخضت عن فقد أو دمار وتلك الفواجع استنفرت رغبة الإنسان في المعرفة والكشف عن حقيقة الوجود "(البغدادي، 1986 م، ص31) في جميع أبعاده.

استخدم الشاعر لغة مجازية مليئة بالاستعارات والكنايات ليجسّد الحزن، فصوّره مثلًا كسحابة سوداء تثقل القلب أو كغصن ذابل يئن تحت وطأة الرياح.

هذه الصور الشعرية تمنح الحزن شكلاً محسوسًا، فتجعل القارئ يراه ويشعر بوطأته بوضوح أقوى من مجرد وصف مباشر، ففي قوله: "كأنَّ رَحَى الأيَّامِ زيرٌ مُحاربٌ"(الخيال،2012م،ص 12)، فهناك استعارة كبرى: جعل «رحى الأيام» كائنًا محاربًا، وجعل «ليل بسوس» في النص نفسه حربًا تشرع ظلماتها مثلما تُشرع الأبواب للسيوف.

الأمل في ديوان «سبأ أخرى»

الأمل في النصوص العميقة ليس مصباحًا يضيء الطريق، بل شعاعٌ هشّ يتسلل بين شقوق الجراح؛ يلمع لحظةً ثم يتوارى، لكنه يكفي ليقول: ما زال في القلب مكان يتسع للضوء، ولو بارتجاف، يصف الشاعر الامل غذاءً

للداخل، لكنه هش مثل قصب، شفاف مثل خيال، ورغم ذلك يروي العطش الحقيقي للروح، فيقول:

تَهذِي الصحارى العَواقرُ
يُضمِّدُ جُرحَ الرّيحِ
مِزمارُ قلبِهِ
يُغنّي كثيرًا كي تُحَلَّ الضَّفائرُ
سيبقى
كما الحلمُ الشفيفُ مُهاجرًا
فمن قصبِ الأحلامِ
تُروَى السَّرائرُ (الخيال،2012م،ص 8)

هذا نصّ يُعرّي الفرح من ابتذاله المعتاد: لا يعرضه صخبًا أو صراخًا، بل يجعله شفيفًا كحلمٍ مهاجر. الفرح هنا مزمورٌ يداوي الريح، غناءٌ يفك الضفائر، وهذيانٌ يوقظ الصحارى العقيمة لتبتسم من حيث لا تدري. إنه فرح داخلي، دقيق، هش، لكنه جوهري، يسقي السرائر من نبع الأحلام ذاتها، فيبدأ الشاعر النص بصحراء «عاقر» (لا تُنجب، لا تثمر)، لكنها تهذي، أي فيها حركة غريبة، ارتعاش يشبه بداية حُلمٍ أو جنون.

حتى في اليباب والصمت، هناك بذرة خفية لحياةٍ ممكنة — وهذه بذرة الفرح الأولى في النص، «يُضَمِّدُ جُرحَ الريحِ مِزمارُ قلبِهِ» هناك صورة رائعة واضحة فالقلب بمزماره (أي غنائه الداخلي) يُضمد جراح الريح وهذا الفرح ليس خارجيًا، بل يخرج من القلب نفسه، ويُعالج حتى الطبيعة الجريحة (الريح)، كأن الفرح هنا قوة شفائية تنبع من الداخل، «يُغنّي كثيرًا كي تُحَلَّ الضفائرُ» فالضفائر عادة رمز للأنوثة، للزينة، وربما أيضًا للقيود التي تُحلّ فتتحرر فهي هنا الغناء- الفرح - يؤدي وظيفة تحررية: يغني حتى تنحل

الضفائر، حتى ينفتح الشعر (أو الوجود) على انطلاق جديد أي ان الفرح صار حركة تفكك الانغلاق، «سيبقى كما الحلمُ الشفيفُ مهاجرًا» الامل هنا ليس صلبًا ولا ثابتًا، بل «كالحلم الشفيف»، أي خفيف، رقيق، عابر وسيظل مهاجرًا، أي لا يستقر طويلًا وهذا تأمل وجودي في طبيعة الفرح: لا يقيم، بل يمرّ ويتركنا أنقى قليلًا، «فمن قصبِ الأحلامِ تُروى السرائرُ» النهاية تلخص فلسفة النص: السرائر (النفوس الباطنة) لا تُسقى بالماء، بل تروى من قصب الأحلام- أي من مواد الحلم اللطيفة الهشة.

إن " الامل والتفاؤل بالمستقبل والتوجه نحوه، يعبّران عن الحالة المعرفية للعمل والمثابرة نحو المستقبل "(صفرى، 2020م،ص137)، فيقول:

هناكَ
خلفَ زجاجِ الرّيحِ مُنتظِرٌ
كأنَّني
في رحابِ الموجِ أُختَزَلُ
يطوفُ بي حُلمُ المعنى
فألثمُهُ (الخيال،2012م،ص14-15)

هذا نصّ يُسطّر الأمل في أجمل تجلياته الرقيقة: ليس وعدًا صريحًا بالسعادة، بل إشراقة حلمٍ يطوف بالقلب فيقبّله خوفًا من ضياعه. خلف زجاج الريح يقف الأمل متخفّيًا، والموج يُربك الذات فيختزلها، لكن يظل «حلم المعنى» يدور حولها حتى تجرؤ على لثمِه - وهكذا يُبنى الرجاء من أخفّ اللمسات، فـ«هناكَ خلفَ زجاجِ الرّيحِ مُنتظِرٌ» النص يضعنا منذ البداية في حالة ترقّب: «هناك»- مكان بعيد، و«خلف زجاج الريح»- صورة عبقرية للشفافية والحاجز في آنٍ معًا، فالريح زجاج، أي عائق هشّ يُرى من خلاله، يلمّح إلى أن الأمل موجود لكنه ليس ميسورًا، قريب وبعيد في الوقت نفسه،

و«كـأنَّني فـي رحـابِ المـوجِ أُختـزلُ» صـورة أخـرى تلمـع بالأمـل الممـزوج برهبة: الموج واسع (رحاب)، لكن المتكلم يشعر أنه يُختزل فيه، أي يُصغّر أمام مدّه، هذا فيه حالة من التسليم الجميل، كأنه يقبل أن يُذوّب ذاته في هـذا الاتساع، لعل فيه نجاة، و«يطوفُ بي حُلـمُ المعنى فألثمُهُ» هنا ذروة الأمـل: «حلم المعنى»- أي توق إلى شيء أسمى، إلى غاية، إلى حقيقة.

هذا الحلم يطوف به، أي يلتف حوله كطواف العابدين، ثـم هـو لا يتركـه يمرّ بـلا لمسـة، بـل «يلثمـه»، أي يقبّلـه بشـغف، كمـا يقبّـل العاشـق يـد معشـوقه أو جبين حلمٍ انتظره طويلًا.

والتفـــاؤل " عـــادة عبـــارة عـــن نتيجـــة لرؤيـــة الكـــأس الممتلـــئ "(صفرى،2020م،ص 137)، ويقول:

أهوّمُ نحو الحُلْمِ
والليلُ شاردُ
كأنَّي
بوهمِ اللامكانِ مُطارَدُ
تقوَّسَ ظهرَ الشُّوقِ
من شدّةِ الرُّؤى (الخيال،2012م،ص85)

في هذا النص، الأمل لا يظهر كضوء ساطع بل كحركة مُرهَقة: هُيامٌ في ليلٍ شارد، مطاردة في فضاءٍ لا مكان له، وظهر شوقٍ محنيّ تحت حمل الرؤى. ومع ذلك، يظل الشوق قائمًا، يصرّ أن يحمل الحلم، فتكون هذه انحناءة الأمل الكبيرة: تعبٌ يواصل الحلم حتى لو لم يجد له أرضًا، فقط كي لا يكفّ القلب عن الرجاء، فـ«أهـوّمُ نحـو الحُلْـمِ والليـلُ شـاردُ»النص يفتح بمشهد حركي: «أهـوّم» أي أتقـدّم مترنّحًـا، شـبه نـائم، أو كـأنني فـي غيبوبـة الحلم والليل «شارد»، أي ليس ساكنًا ولا مطمئنًا، بل ضائع الفكر، ففي هذا

المشهد، الأمل هو الحلم نفسه الذي يسعى إليه المتكلم حتى لو سار فيه متخبّطًا تحت ليلٍ مقلق، و«كأنّي بوهمِ اللامكانِ مُطارَدُ» الشاعر لا يُطارد في مكان معلوم، بل في «وهم اللامكان» - يلاحقه شيء ليس له حدود ولا ملامح، وهذه المطاردة نفسها تعبّر عن الأمل الذي يصرّ على الجري وراء فكرة، حتى لو لم يجد لها مكانًا يحتضنها بعد.

هنا الأمل يأخذ شكلًا وجوديًا هشًّا: سعي وراء ما لا يُمسك، هروب من فراغ إلى فراغ لعل في آخر الطريق معنى.

«تقوَّسَ ظهرَ الشُّوقِ من شدّةِ الرُّؤى» صورة باذخة: فالشوق نفسه صار له جسد، وظهره انحنى من ثقل الرؤى الكثيرة التي يحملها وهذا يعني أن الأمل (الشوق) لم يمت رغم طول الطريق: ما زال يحمل رؤى وأحلامًا حتى لو أحنته ففي ذلك إشادة ضمنية بقوة الشوق على الاحتمال، مهما تثاقل به الحلم ووطأ ظهره.

ويقول:

رسمُوا على فجرِ الخُطى
الأحلاما
يتنافسونَ
ليعزفُوا الأعوامَا
عبرُوا سماءَ النَّهرِ
نحو شروقِهِمْ
لغدٍ بهِ يتنفّسونَ خُزَامَى (الخيال،2012م،ص65)

هذا نصّ يَصنع من الأمل فنّ حياةٍ كامل: يرسمون الأحلام على فجر خطواتهم، يتنافسون ليُعزفوا أعوامهم مثل موسيقى، يعبرون أنهارهم صوب شروق خاص، ويستنشقون غدًا معطّرًا بالخزامى. هنا الأمل ليس أمنية عابرة،

بل خطة جمالية يعيدون بها صياغة وجودهم كل صباح، فبداية النص تضع الأمل في صورة ملموسة: الناس يرسمون الأحلام على الفجر ذاته، أي يختارون أن يلوّنوا بداية خطواتهم بالآمال، وهذا يعني أن الأمل هنا فعلٌ إراديّ، إبداعٌ يوميّ يُضفى على الصباح ليجعل الحياة محتملة ومزهرة، و«يتنافسون ليعزفوا الأعواما» صورة بديعة: للأعوام التي لم تعد فقط تُعاش، بل يُعزف عليها كما تُعزف موسيقى، والناس يتنافسون أيهم يجعل لحن عمره أجمل وهنا الأمل هو الذي يحوّل مرور الزمن من مجرد تآكل صامت إلى حفلة موسيقية تُبدعها قلوب تتوق للجمال، و«عبروا سماءَ النَّهرِ نحو شروقِهم» صورة تجمع بين الأرض والسماء والماء في مسار واحد نحو الضوء، فالعبور هنا ليس مجرّد رحلة، بل تجاوزٌ لما هو مألوف (النهر) صعودًا نحو إشراق خاص بهم والأمل يتجلى في هذا التوجّه الدائم إلى شروق شخصي، لا شروق شمس الطبيعة فحسب، و«لغدٍ بهِ يتنفّسونَ خُزامى» النهاية تلخص روح النص: الغد ليس مقلقًا، بل هو رئة أخرى للتنفّس، مملوءة بعطر الخزامى، فـ " التفاؤل هو المدمر لليأس وانتظار الأمل "(معرفاوي وآخرون،2021م، ص49) أي أن الأمل عند هؤلاء ليس وعدًا مبهَمًا، بل يوم جديد يعطّر أنفاسهم بحلاوة الحياة.

ويقول:

يهدي العصافير ألحاناً لتهمسَهُ
ما زالت العشبةُ الأولى تُكلِّمُه
عن الخلودِ
ومن بالفكرِ أسّسَهُ
كلكامشُ النهرُ
يسري دونما ضفةٍ من الوجودِ

رأى الآبادَ مجلسَهُ
خطّ الشواطئَ أوقاتاً لحكمتِهِ
حتى أتى الموجُ
مفتوناً ليدرسَهُ
هذا العراق (الخيال،2012م)

في هذا النص، الأمل لا يظهر كنشوة طارئة، بل يُكتب في لغة الأسطورة والحكمة والأنهار التي لا تموت. العصافير، الأعشاب، كلكامش، النهر، الموج- كلها تتآمر لتقول: هناك دائمًا حياة أعمق من الزوال، وذاكرة أوسع من الفناء. الأمل هنا تاريخٌ حي، وميراثٌ يهمس لنا بأن نواصل العبور، يفتتح الشاعر النص بافتتاح مدهش في رقّته: الوجود ذاته يهدي العصافير ألحانًا، والعصافير لا تصرخ ولا تنادي بل تهمس- همسها وعد ناعم بأن هناك دائمًا ما يُغنى له، حتى لو في صمت، وهذا تلميح إلى أن الحياة تواصل بثّ ألحانها الصغيرة من حولنا، لتذكّرنا بوجود الفرح والأمل مهما خفت صوته، و«ما زالت العشبةُ الأولى تُكلِّمُه عن الخلودِ ومن بالفكرِ أسّسَهُ» العشبة الأولى- رمز البدايات البسيطة، الضعيفة- ما تزال تتحدث عن الخلود، هذا يعكس فلسفة أمل رائعة: حتى أصغر كائن في الأرض يحمل رسائل عن البقاء الأبدي، ومن أسس هذا بالفكر؟ أسطورة كلكامش، الذي جعل البحث عن الخلود همًّا إنسانيًا عابرًا للقرون، هنا الأمل ليس رغبة وقتية، بل سؤال أزلي تردده حتى الأعشاب، و«كلكامشُ النهرُ يسري دونما ضفةٍ» حول الشاعر كلكامش إلى «نهر»، أي صار رمزًا متدفقًا للحياة، متجددًا بلا انقطاع ولا حدود (دونما ضفة)، وهذا استمرار وجودي للأمل، و«من الوجودِ رأى الآبادَ مجلسَهُ... حتى أتى الموجُ مفتونًا ليدرسَهُ» فكلكامش (بوصفه العراق أو روح الإنسان) رأى الأبد مجلسه، أي مكان

جلوسه المعتاد، حتى الموج- رمز الزمن المستمر، القادم والذاهب- أتى مفتونًا ليقرأ هذه الحكمة، وهنا الأمل يظهر في الثبات رغم تغيّر الأزمنة، في أن الإرث العظيم (كالحضارة العراقية مثلًا) لا يذوب بل يأتي الزمن نفسه ليتعلم منه، و«هذا العراق »النص يختم باسم العراق بوصفه خلاصة لكل ما سبق: فهو موطن الأساطير، النهر، العشب الذي يتهامس عن الخلود، العصافير التي تهدي ألحانها، الموج الذي ينحني ليتعلم، فهناك تلاحم بين تحمل المشاق وحلم الفرج بعد الشدة وهذه النهايات في الأدب العربي نهايات سعيدة، وترتكز على مفهوم متفائل من الأمل يقضي بتحمل العيش ضمن الظلم والقهر(حنا بواردي، 2023م)، وهذا العراق ليس خرابًا، بل معجزة أمل متجذرة في التاريخ والطبيعة والفكر والقصيدة.

ويقول:

أنا

على ظهرِ هذا الحوتِ في سفرٍ

وليس يا خضرُ

لي صبرٌ فأكتمِلُ (الخيال، 2012م، ص17)

يمكن القول: إن النص يؤسس لتفاؤل وجودي هادئ: هو تفاؤل لا يصرّح به صراحة، لكنه يتجلى في حركة النداء (يا خضر)، في بقاء الشاعر فوق الحوت لا في ظلمة جوفه، وفي الإيمان المستتر بأن للصبر وظيفة كبرى - حتى لو افتقر إليه الآن.

هذا النوع من التفاؤل الأدبي هو الأجمل، لأنه لا يعوّل على أمل ساذج، بل ينهض من قلب التيه نفسه ليبحث عن اكتمال أعمق.

النتائج:

تلخصت الدراسة إلى:

• أن الحزن والتفاؤل في ديوان «سبأ أخرى» ليسا معطيين شعوريين ساذجين، بل طاقة تشكيلية للمعنى الشعري نفسه.

• يغدو الحزن أفقًا فلسفيًا للوجود، بينما يصير الأمل قدرة روحية على اختراق غيم الحياة. وهذا ما يمنح الديوان مكانته بين تجارب الشعر العربي الحديث ذات النزوع الوجودي.

• الحزن في ديوان «سبأ أخرى» يتجاوز كونه حالة انفعالية آنية ليصبح موقفًا وجوديًا فلسفيًا، يتجلّى في صور التيه، الوحدة، واستدعاء الرمز الأسطوري (هابيل، الحوت، الغراب)، مما يكشف عن وعي الشاعر بالجانب التراجيدي للإنسان.

• الأمل يظهر في الديوان هشًا شفافًا لكنه حيوي، يتسلل في هيئة أحلام مهاجرة أو غناء يضمّد الريح، فيقدّم الشاعر بذلك تصورًا للأمل بوصفه ضرورة روحية حتى في أقسى حالات الفقد.

• العلاقة بين الحزن والتفاؤل في بنية الديوان هي علاقة جدلية لا تناقضية؛ فكلاهما يتساند ليشكلا رؤية شعرية متوترة تجمع بين ألم الإدراك العميق للحياة ورغبة التشبث بومضات المعنى.

• الصور الشعرية في الديوان اتسمت بالعمق الرمزي والمجاز المركّب، إذ جعل الشاعر من عناصر الطبيعة والأسطورة والموروث أدوات لتكثيف إحساسه الوجودي، ما أضفى بعدًا فلسفيًا للنصوص.

المصادر:

القرآن الكريم.
- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، ط1، 1994م.
- البخاري، صحيح البخاري، باب قول النبي (ص): "أنا بك لمحزونون" حديث رقم 2893، (36/4).
- بغدادي، د. مريم، التأصيل الفني للبكائية القديمة في الشعر الجاهلي، مجلة أبحاث اليرموك، مجلد 4، ع1، 1986.
- الجبوري، سامي، ظاهرة الحزن في دواوين شعراء المعلقات دراسة موضوعية فنية، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، 2004م.
- الجرجاني، معجم التعريفات، ت: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، مصر.
- جولمان، دانييل، الذكاء العاطفي، ت: ليلى الجبالي، مر: محمد يونس، عالم المعرفة، صدرت السلسلة في شعبان 1998 م.
- حنا بواردي، باسيليوس، مفهوم الأمل واللاأمل في الشعر الفلسطيني: ريم غنايم ووسام جبران نموذجين نصيين، مجلة الدراسات العربية:2023م، مجلد 2، العدد 224م.
- الخيال، أحمد جاسم، سبأٌ أُخرى، منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، بغداد، المكتبة الوطنية، 2012، ط1 .
- صفرى، كبرى، تفاؤل في مدائح المتنبي، دراسة في الاتجاه السلوكي لسليجمن، إضاءات نقدية، السنة العاشرة، العدد السابع والثلاثون، 2020م.
- العتابي، م.د أحمد كاظم سلمان، مظاهر الحزن في شعر فليحة حسن، جامعة واسط، مجلة كلية التربية، العدد الرابع والأربعون، ج1/ آب/ 2021.

- العرداوي، زمان شناوة فاهم، شعر احمد الخيال دراسة أسلوبية، جامعة كربلاء /كلية التربية للعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، 2022م.
- العكسر، د.عبد الله بن محمد، التفاؤل في زمن الكروب، ط1، دار رسالة البيان للطباعة والنشر، 2018.
- ماكاي، دوجال، علم النفس الإكلينكي: النظرية والتطبيق، ت: أ.د. عباس محمود عوض، دار المعرفة، 2002م.
- المرزوك، د. صباح، البابليات، دار الفرات للثقافة والإعلام، بابل، العراق، ط2012،2.
- معرفاوي وآخرون، سمانه، ثنائية "التفاؤل والتشائم" في شعر محمد حسين آل ياسين، مجلة الأثر، المجلد 18، العدد (1)، 2021 .